الجزء الثالث

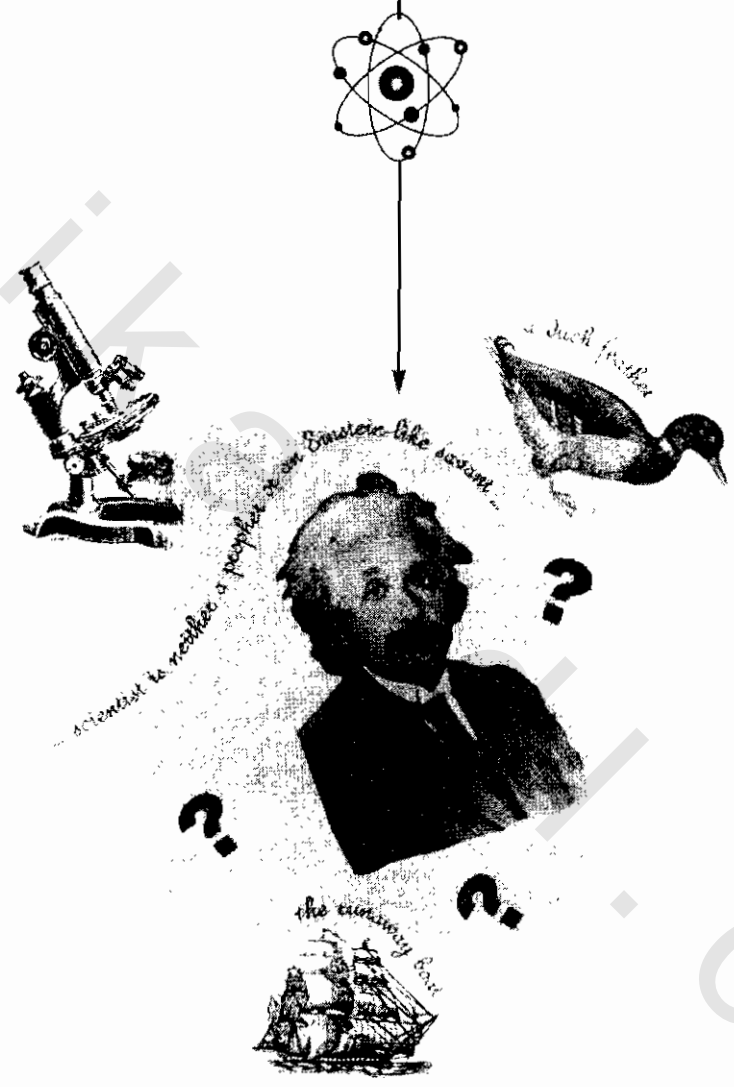

التعليـــم

الجزء الثالث :

١/٣ - التربية من أجل عالم واقعى :

فى عام ١٩٤٨ ، كنت ملتحقاً بالمدرسة العليا . فى هذه الفترة كان عدد الطلاب قليلاً بالمقارنة بما يحدث اليوم . كان لدينا معلمين على أعلى مستوى من المعرفة فى كل الموضوعات . ناس يمكنهم اليوم أن يكونوا أساتذة جامعيين ! حالياً، فى فرنسا أنا غير راض عن نظام التعليم . هذا النظام أصبح أكثر تخصصية وانتقائية. وحكمى السلبى هنا ينصب على منطقة اهتمامى وهى العلم والتكنولوجيا . وجهة نظرى ليست اتهام موجه إلى المعلمين المبتدئين (اللذين هم جزء من هذا الواقع) ولا موجه إلى الطلاب . ولكنه متعلق بالنظام التعليمى الذى هو نموذج لايضفى سوى الاحباط . ولدى بعض الأوهام الممكنة للإصلاح وإعادة التشكيل . من الجزء الأول لهذا الكتاب قد يفهم القارئ أننى أفضل أن انفق الأموال على برنامج تجريبى يجرى فى مجال ما له أهداف خاصة ومحددة وطرق متواضعة . ولكن توجد أشياء يجب أن تقال ، فالعلم من الأمور الهامة الضرورية لبلوغ شبابنا مرحلة الاحتراف والمشاركة فى خدمة المجتمع . أننى أعتقد أن حولنا العديد من الجهلاء ! ويمكننا أن نقول « أن العلم فى خطر » . يحتاج أطفالنا الآن إلى خلفية علمية وتكنولوجيا كافية . وعدم تشجيع أو حجب الثقافة العلمية الرشيدة على الكبار والصغار تعتبر جناية فى حق الوطن لأنها ببساطة تتركهم غير قادرين على مواجهة القضايا التى تنتظرهم .

نحن فى فرنسا لا نشجع الأفراد على أهمية العمل اليدوى بعكس ما يحدث فى الولايات المتحدة الأمريكية واليابان . والعمل اليدوى يدعو للمواظبة واتقان العمل .

فى العهود السابقة فى الأقاليم الريفية الفرنسية كان يتعامل الأطفال يومياً مع الطبيعة وعالم المهارة ويتعلموا دقة الملاحظة . هذه النقطة المرجعية اختفت من حياتنا العصرية ولابد أن نجد ما يعوضنا .

سألنى شاب لمساعدته فى تحديد اختياره التعليمى ، كانت إجابتى تخصصيه وبالتحديد فى مجال الرياضيات والإدارة التى تبقى رغم كل شىء أكثر النظم الفاتره على المستوى الإنسانى . فكثير من المدارس العملية تخرج مهندسين لهم قدرة على استيعاب التقارير بسرعة وكتابة تقارير أخرى جديدة التى بدورها تخلل فى زمن قياسى. هذا الأسلوب فى اعتقادى لايعبر عن المسار فى حياة متزنة . وحالياً لا غنى عن تكنولوجيا الكمبيوتر فالعديد من التجارب أصبحت ترتبط أتوماتيكياً بالكمبيوتر لمعالجة النتائج وضبط الأجهزة الإلكترونية والتى كانت تحتاج إلى زمن طويل لضبطها يدوياً . ولكن على المستوى الجزئى فإن العمل يحتاج إلى إحساس فردى ويحتاج إلى مجمعة عمل لها أفق واسع ومقدرة على التحدى ومفكرين يتسمون بالأمانة والطهارة .

ولدينا أمثلة عديدة من قصص المبدعين والمفكرين الأولين أذكر منهم عالم المحيطات الاسكندنافى « ف. و. ايكمان » والمهندس الايطالى « ليوناردو دافنشى » . لابد من إعطاء طلابنا نقاط مرجعية لاقتيادهم بعيداً عن الاعتماد على الآلة والمعدات. وهذا يعود بنا إلى المهندس التطبيقى والباحث الأساسى . والآن دعنا نعود إلى الضرر المحاق بالثقافة الفرنسية . هذا الضرر يعود إلى القرن التاسع عشر عندما وضع الفيلسوف الفرنسى « اجست كومت » اختراعه على نظام تقسيم العلوم . وضع على قمة الهرم علم الرياضيات وفى القاع علم الكيمياء والتى كان لايعتبرها من ضمن مقررات العلوم . وفى منتصف الهرم كان علم الفلك والفيزياء . فى هذا التقسيم أهمل علم الجغرافيا والتعدين الذى كان ينظر إليهما على أساس أنهما من العلوم الوصفية المجردة من الفكرة . ومنذ ذلك الوقت تسبب هذا التقسيم فى إلحاق الضرر وإفساد التعليم والعلماء حتى الآن . فقد زرع احتقار العمل اليدوى . ونحتاج الآن إلى محاولات جادة لإعادة قيمة المعاملات اليدوية وطرق التدريب .

٢/٣ - أمبريالية علم الرياضيات : نظام الالتحاق بالتعليم العالى فى فرنسا يحتاج إلى برنامج تأهيلى يستغرق عامان ، لكى يستطيع المرء الدخول فى نظام اختبارات القبول ومواجهة المصير المحتوم من السيطرة الامبريالية للرياضيات . فنرى أن امتحان القبول فى المدرسة الطبية يجعل الطلاب يكدحون لوصف التدريبات الرياضية ، بالمثل فى اختبار الفيزياء الذى تحول إلى اختبار فى الرياضيات التطبيقية . وتعانى الكيمياء من نفس المصير ، كما ارتبطت اختبارات البيولوجى بالطرق التحليلية . والسؤال هو : لماذا التركيز على الرياضيات ؟ اعتقد أن الإجابة مرتبطة بتقارب الاهتمامات التى تجعل النظام ثابتاً عملياً وأكثر بيروقراطية . أننى لا أملك أى شىء ضد علم الرياضيات ، أنه نظام علمى مفتخر أؤمن به جداً . ولكنى أعترض واتأسف لجعل الرياضيات معياراً لنبوغ وموهبة الطلاب وقياس معرفتهم .

والتعليم الجامعى فى فرنسا له مشاكل خاصة – ومستوى الاتقان التعليمى لطلاب السنة الأولى متوسط ، ومازال معدل الرسوب فى الاختبارات مرتفعاً . والمحاضرون لايبدون أدنى اكتراث بالمستقبل المهنى للطلاب . وحالياً ، وضعت الجامعات الفرنسية نفسها فى عملية اختبار ذاتى رهيب يحتاج إلى التنديد الصارم بالوضع الحالى يعمل على استقلالها وتفويضا لإجراء التغيير المحتوم .

هناك أربعة قضايا رئيسية تعانى منها الجامعات هى :

١ – تعانى الجامعات من تقسيمها إلى أقسام مغلقة منعزلة مثل أقسام الهندسة الميكانيكية والفيزياء والكيمياء .. وخلافه .

٢ – ترهل نظام التعليم .

٣ – عدم التنسيق مع التوجهات الصناعية .

٤ – نظام التوظيف يكون بغرض سد الاحتياجات المعملية بدلاً من التطلعات المستقبلية .

من أين يأتى هذا الضعف التعليمى ؟

فى رأى أن أسباب ضعف التعليم الجامعى هو أسلوب الإدارة وعدم المقدرة على اتخاذ قرارات مصيرية لتحسين التعليم وخلق مقررات علمية جديدة . وبصفة عامة فقد أدت مساوئ التعليم الجامعى إلى خريج ضعيف لايستطيع أن يختار بين البحث والتقدم الصناعى وأصبح غير مصقول ومصاب بالمرض الذى لايمكنه من الكفاح والتقدم فى عمله .

٣/٣ - بعض الخبرات التربوية :

أ - قليل من الاكسجين :

إننى أدعو إلى تغيير نظام الاختبارات وطرق التعليم التى نمنحها إلى طلابنا . من أجل ذلك لابد من تنظيف كافة التشريعات والقوانين القائمة من أجل خلق برنامج قومى مقبول لتطوير التعليم . ولذلك اقترح أن نعطى بعض المقررات فى مجال الفيزياء والكيمياء بنماذج تجريبية لطلاب المرحلة الإعدادية ومن الضرورى أن نشكل كمرحلة ثانية فصولاً اختيارية تأسس على ثالوث الفيزياء والكيمياء والبيولوچيا .

وأننى اشعر أنه لايمكن أن يتغير نظام التعليم دون ضخ قليل من الهواء النقى ، فدعنا أولاً نعمل على تغيير نظام القبول فى التعليم الجامعى ، دون هز « شجرة الجوز من القمة » من الحكومة إلى اللاعبين أنفسهم .

ب - تقوية الجامعات :

إن الحديث عن النظام الجامعى تركنى فى حيرة وارتباك. ولتقوية التعليم الجامعى اقترح ما يلى :

١ – دفع الأساتذة والمحاضرين الجامعيين إلى أخذ عام دراسى كامل للتفرغ ليس بالضرورة لتكريس أبحاثهم ولكن للعمل فى مجال الصناعة . لابد من الانغماس فى القضايا الصناعية .

٢ – عمل نظام متابعة للطلاب ووضع اختبارات متتالية تحريرية وشفهية وفرز الموهوبين منهم بدلاً من فقدهم وسط الزحام .

٣ – تغيير طرق التدريس التى ينبغى أن ترتكز على الحوار بين الطلاب والأساتذة . بالطبع هذا الحل المثالى ، يحتاج إلى توفير الوقت والطاقة وزيادة أعضاء هيئة التدريس وبالتالى زيادة ميزانية التعليم .

ج - الانفتاح :

بجانب تغيير نظام التعليم الأساسى والجامعى ، هناك إنجاز ثالث وهو متعلق

بضرورة الانفتاح والخروج إلى أوروبا . فقد أصبحت الوحدة الأوروبية العلمية حقيقة فى حياتنا . هناك تبادل للأفكار العلمية عن طريق الزيارات العلمية المتبادلة وسرعة نقل المعلومات بين الخبراء . فالحدود الجغرافيا للأمم لم تحجب المعرفة . عادة ينتقل الباحثون بعد تقديم أطروحتهم لنيل الدكتوراه فى سن سبعة وعشرين عاما إلى الخارج والعمل فى دول أخرى .

حالياً ، تشجع الحكومات الأوروبية التبادل الطلابى فى مراحل سنية مبكرة ولكنى لا اتوقع أن مثل هذا البرنامج يكون مفيداً ، نظراً لأن الطلاب الصغار يفتقدون عوامل النضج للتفاعل مع البيئات الأخرى غير المألوفة .

٤/٣ - الرايات الجديدة :

من الطبيعى ، أن الحوار حول التعليم أبرز تساؤلات أخرى أبعد من الإطار التربوى . فأكثر القضايا المثارة فى مجتمعنا الغربى تتعلق بالشباب – وأننى أرى من واجبى أن أطرح أمرين على درجة كبيرة من الأهمية أولهما : أخلاقيات المعرفة والثانى : التضامن العالمى .

الأخلاق والتضامن :

مسألتا الأخلاق والتضامن من النقاط المشتركة ، فبدون روح التضامن بين دول الشمال والجنوب فى مجالات البحث والعلم والتكنولوجيا يصبح الهدف حلماً لايمكن أن يتحقق . كثير من الطلاب الأجانب الذين يوفدون إلى فرنسا للتعليم التكنولوجى يجدوا صعوبة فى عودتهم إلى بلادهم مرة ثانية ولذلك يمكثون فى فرنسا . ومنهم من عاد لبلادهم ولايستطيعون نقل معرفتهم لعدم قدرة اقتصادهم النامى على استيعابهم ، ولذلك لابد من إعادة التفكير فى برامج التعليم ليس فى فرنسا فحسب ، بل أيضا فى الدول النامية التى نأمل أن يمكنها أن تتعايش معنا فالتبادل الثقافى من خلال القنوات المفتوحة يدعو إلى وقف توتر الحرب الباردة والصراع الاقتصادى واختلافات الثقافة والأديان . والتفاعلات العلمية تعتبر من الأسلحة القليلة التى يمكن أن تبنى عليها روح التضامن . فلابد أن تزرع مدارسنا فى نفوس مهندسينا كيف يتخيلوا ويخترعوا فرقا جديدة لتطوير الدول النامية من أجل عالم جديد . هذا هو التحدى الكبير الذى يواجهه جيل الشباب .

نحـــن بشـــر :

خلال حديثى بين سطور هذا الكتاب وبلغة الفيزياء التى ساهمت فى تطوير المجتمع الإنسانى لم أكن يقينياً أبداً .. فمع تطور علم الفلك والأرصاد بوسائل راديوية حديثة لم نستطع أن نثبت أو نسترشد عن وجود أى حياة أخرى فى هذا الكون . لماذا ؟

فى الوقت الحالى تزداد الدلائل عن وجود نظم عديدة من الكواكب فى الكون وهناك احتمالات عن توفير الشروط الكيميائية (ربما من المواد الرخوة) التى تواصل تطور أشكال الحياة التى قد تختلف عن أشكالنا . ولكن لا توجد إشارة على

هذا ، لماذا ؟ فالحياة على الأرض تعتمد على الشفرة الوراثية المتواجدة عبر بلايين السنين . وحديثاً عرفنا كيف نستعمل إشارات موجات الراديو فى الاتصال . وعمر قرن من الزمان بالمقارنة ببلاين السنين لايمثل سوى جزء من عشرة مليون من تاريخنا .. قد تكون هناك فى الكون حضارات متقدمة تبث إلينا بموجات لا نستطيع أن نرصدها بتكنولوجيتنا الوليدة والآن دعنا نسأل : هل حضارتنا حقيقة هى ظاهرة باقية ومستمرة . أقول أن التضامن العالمى كفيل أن يجعل حضاراتنا باقية . والإجابة يجب أن يكتبها أطفالنا .

obeikandl.com